سلسلة المقالات

المنهجية

(٢٣)

خَوَاتِيمُ آلِ عِمْرَانَ

بَيْنَ الفِكْرَةِ والعِبْرَةِ

كتبه

الدكتور عيد أبو السعود الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده ﷺ، أمَّا بعد:

فقد روىٰ البخاري في «صحيحه» (٤٥٦٩)، (٤٥٦٧٠) باب قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] **عن ابن عباس** رضي الله عنهما **قال:**

بتّ عند خالتي ميمونة فتحدَّث رسول اللَّه ﷺ مع أهله ساعة ثُمَّ رقد، فلمَّا كان ثلث الليل الآخِر، قعد فنظر إلىٰ السماء فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩٤]، ثُمَّ قام فتوضأ واستنَّ فصلىٰ إحدىٰ عَشْرَةَ ركعة، ثُمَّ أذَّن بلالٌ فصلىٰ ركعتين ثُمَّ خرج فصلَّىٰ الصبح»، وفي الرواية الأخرىٰ: «بِتُّ عند خالتي ميمونة، فقلت لأنظرنَّ إلىٰ صلاة رسول اللَّه ﷺ، فطرحَت لرسول اللَّه ﷺ وسادة فنام رسول اللَّه ﷺ في طولها، فجعل يمسح النَّوْم عن وجهه ثُمَّ قرأ الآيات العشر الأواخر من آل عمران»، ثُمَّ روىٰ البخاري حديثين (٤٥٧١، ٤٥٧٢) لنفس الحديث السابق.

وروىٰ مسلم في «صحيحه» (٧٦٣) بلفظ آخر قال: بتّ ليلة عند خالتي ميمونة، فقام النَّبِيّ ﷺ من الليل فأتىٰ حاجته ثُمَّ غسل وجهه ويديه، ثُمَّ نام، ثُمَّ قام، فأتىٰ القِرْبَة فأطلق شِناقها، ثُمَّ توضأ وضوءًا بين الوضوءين ولم يُكثِرْ وقد أبلغ، ثُمَّ قام فصلىٰ، فقمت فتمطيت كراهية أن يرىٰ أني كنت أنتبه له، فتوضأت

فقام فصلىٰ، فقمت عن يساره فأخذ بيدي فأدراني عن يمينه فتتامّت صلاة رسول اللَّه ﷺ من الليل ثلاث عشرة ركعة، ثُمَّ اضطجع فنام حتىٰ نفخ، وكان إذا نام نفخ، فأتاه بلال فآذنه بالصلاة، فقام فصلىٰ ولم يتوضأ، وكان في دعائه: «**اللهم اجعل في قلبي نورًا، وفي بصري نورًا، وفي سمعي نورًا، وعن يميني نورًا، وعن يساري نورًا، وفوقي نورًا، وتحتي نورًا، وأمامي نورًا، وخلفي نورًا، وعظم لي نورًا**».

وفي رواية ذكرها القرطبيّ في: «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٢٣٧) عند الآية قال:

«ورُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما نزلت هذه الآية علىٰ النَّبِيّ ﷺ قام يصلي، فأتاه بلال يُؤذنه بالصلاة، فرآه يبكي فقال: يا رسول اللَّه أتبكي وقد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**يا بلال أفلا أكون عبدًا شكورًا، وقد أنزل اللَّهُ عليَّ الليلة** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ثُمَّ قال: «**ويل لمن قرأها ولم يتفكَّر فيها**». اهـ.

وأصل الحديث عند مسلم في «صحيحه» (٢٨١٩).

وهذا الحديث ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٢١)، رواه ابن حبان في «صحيحه» عند هذه الآيات فهذه الأحاديث التي ذكرها المفسرون في هذه الآية كالقرطبي وابن كثير وغيرهما، وبدأت بها هذه المقالة؛ لتكون بداية الكلام، ثُمَّ أذكر كلام المفسرين في هذه الآيات وبيان ما أردته من هذا البيان الذي سمَّيته: «**خواتيم آل عمران بين الفكرة والعبرة**».

قال القرطبيّ في: «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٢٣٧، وما بعدها مختصرًا):

«**الأولىٰ**: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ختم تعالىٰ هذه السورة بالنظر والاستدلال في آياته؛ إذْ لا تصدر إلَّا عن حَيّ قيّوم قدير قدّوس سلام غنيّ

عن العالمين؛ حتىٰ يكون إيمانهم مستندًا إلىٰ اليقين لا إلىٰ التقليد، قوله: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الذين يستعملون عقولهم في تأمَّل الدلائل. . . . . .

الثانية: قال العلماء: يُستحبّ لمن انتبه من نومه أن يمسح علىٰ وجهه [كما في حديث الباب]، ويستفتح قيامه بقراءة هذه العشر الآيات اقتداءً بالنَّبِيّ ﷺ، ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما، ثُمَّ يصلي ما كُتِبَ له؛ فيجمع بين التفكر والعمل، وهو أفضل العمل.

الثالثة: قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ ذكر تعالىٰ ثلاث هيئات لا يخلو ابن آدم منها في غالب أمره، فكأنها تحصُر زمانه؛ وهذا المعنىٰ قول عائشة رضي الله عنها: «كان رسول اللَّه ﷺ يذكر اللَّه علىٰ كل أحيانه» [رواه مسلم في «صحيحه» (٣٧٣)، والبخاري معلّقًا في الأذان باب (١٩) قبيل حديث (٦٣٤)].

فدخل في ذلك كونه علىٰ الخلاء وغير ذلك، وقد اختلف العلماء في هذا، فأجاز ذلك عبد اللَّه بن عمرو وابن سيرين والنَّخعي، وكره ذلك ابن عباس وعطاء والشعبيّ، والأوَّل أصح لعموم الآية والحديث.

قال النخعي: «لا بأس بذكر اللَّه في الخلاء لأنه يصعد»، والمعنىٰ: تصعد به الملائكة مكتوبًا في صحفهم، فحذف المضاف؛ دليله قوله تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠- ١١]، ولأنَّ اللَّه ﷻ أمر عباده بالذكر علىٰ كل حال ولم يستثن فقال: ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]؛ فَعَمَّ، فذاكر اللَّه تعالىٰ علىٰ كل حالاته مُثاب مأجور إن شاء اللَّه تعالىٰ.

وذكر أبو نعيم قال: حدثنا . . . . . عن كعب الأحبار قال: قال موسىٰ عليه السلام: «يا رب أقريب أنت فأناجيك، أم بعيد فأناديك؟ قال: «**يا موسىٰ أنا جليس**

من ذكرني» قال: «يا رب فإنَّا نكون من الحال علىٰ حال نُجِلّك ونُعَظِّمُك أن نذكرك» قال: «**وما هي؟**» قال: «الجنابة والغائط» قال: «**يا موسىٰ اذكرني علىٰ كل حال**» . . . . . .

الثامنة: قوله تعالىٰ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قد بيّنَّا معنىٰ ﴿يَذْكُرُونَ﴾، وهو إمَّا ذكر باللسان، وإمَّا بالصلاة فرْضها ونفلها، فعطف تعالىٰ عبادة أخرىٰ علىٰ إحداهما بعبادة أخرىٰ وهي: التفكرّ في قدرة اللَّه تعالىٰ ومخلوقاته والعِبر الذي بثَّ؛ ليكون ذلك أزْيَدَ في بصائرهم:

وفي كلِّ شيْءٍ له آية تَدُلُّ على أنَّه واحدُ

وقيل: «يتفكّرون» عطف علىٰ الحال، وقيل: يكون منقطعًا، والأوّل أشبه.

• **والفكرة**: تردد القلب في الشيء، يُقال: تفكّره، ورجل فِكِّير كثير الفِكْرِ، ومرّ النَّبِيّ ﷺ علىٰ قوم يتفكّرون في اللَّه فقال: «**تفكَّروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالِقِ، فإنكم لا تقدرون قدره**».

وإنَّما التفكّر والاعتبار وانبساط الذهن في المخلوقات؛ كما قال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وحُكي أنَّ سفيان الثوريِّ رضي الله عنه صلىٰ خلف المقام ركعتين، ثُمَّ رفع رأسه إلىٰ السماء، فلمَّا رأىٰ الكواكب غُشِيَ عليه، وكان يبول الدم من طول حُزْنه وفكرته.

وروىٰ ابن القاسم عن مالك قال: قيل لأُم الدرداء: ما كان أكثر شأن أبي الدرداء؟ قالت: «كان أكثر شأنه التفكّر»، قيل له: أفترىٰ التفكّر عمل من الأعمال؟ قال: «نعم، هو اليقين».

وقيل لابن المُسيّب في الصلاة بين الظهر والعصر؟ قال: «ليست هذه عبادة، إنَّما العبادة الورع عمَّا حرَّم اللَّه، والتفكر في أمر اللَّه».

وقال الحسن البصري: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة»، وقاله ابن عباس

وأبو الدرداء.

وقال الحسن: «الفكرة مرآة المؤمن، ينظر فيها إلىٰ حسناته وسيّئاته».

● **وممَّا يتفكر فيه**: مخاوف الآخرة من الحشر والنَّشْر، والجنَّة والنَّار ونعيمها والنَّار وعذابها، ويروىٰ أنَّ أبا سليمان الدارانيّ أخذ قدح ماء ليتوضأ لصلاة وعنده ضيف، فرآه أدخل أصبعه في أذن القدح أقام لذلك متفكرًا حتىٰ طلع الفجر؛ فقال له: ما هذا يا أبا سليمان؟

قال: «إنِّي طرحت أصبعي في أذن القدح تفكرت في قول اللَّه تعالىٰ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١]، فتفكرَّت في حالي وكيف أتلقىٰ الغل إن طرح في عنقي يوم القيامة، فما زلت في ذلك حتىٰ أصبحت».

قال ابن عطية: «وهذا نهاية الخوف، وخير الأمور أوسطها، وليس علماء الأمة الذين هم الحُجَّة علىٰ هذا المنهاج، وقراءة علم كتاب اللَّه تعالىٰ، ومعاني سنة رسول اللَّه ﷺ لم يفهم ويُرجىٰ نفعه أفضل من هذا».

قال ابن العربيِّ: «اختلف النَّاس أيّ العلمين أفضل: التفكّر أم الصلاة؟ فذهب الصوفية إلىٰ أنَّ التفكر أفضل، فإنَّه يثمر المعرفة وهو أفضل المقامات الشرعية.

وذهب الفقهاء إلىٰ أنَّ الصلاة أفضل؛ لما ورد في الحديث من الحث عليها والدعاء إليها والترغيب فيها، وفي الصحيحين عن ابن عباس أنه بات عند خالته ميمونة وفيه: [فذكر حديث الباب] الحديث.

فانظروا -رحمكم اللَّه- إلىٰ جمعه بين التفكّر في المخلوقات، ثُمَّ إقباله علىٰ صلاته بعده، وهذه السُّنَّة هي التي يُعتمد عليها، فأمَّا طريق الصوفية: أن يكون الشيخ منهم يومًا وليلة، وشهرًا مُفكّرًا لا يفتر، فطريقة بعيدة عن الصواب غير لائقة بالبشر، ولا مستمرة علىٰ السنن».

قال ابن عطية: «وحدثني أبي عن بعض علماء المشرق قال: كنت بائتًا في مسجد الأقدام بمصر، وصلّيت العتمة فرأيت رجلًا قد اضطجع كساء له مُسَجًّىٰ بكسائه حتىٰ أصبح، وصلينا نحْن تلك الليلة، فلمَّا أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة وصلّىٰ مع النَّاس، فاستعظمت جُرْاءَته في الصلاة بغير وضوء، فلمَّا فرغت الصلاة خرج فتبعته لأعظه؛ فلمَّا دنوت منه سمعته ينشد شعرًا:

مُسَجَّىٰ الجسم غائب حاضر ... مُنتبهُ القلبِ صامتٌ ذاكِر
منقبض في الغيوب مُنْبَسِط ... كذاك من كان عارفًا ذاكر
يَبيتُ في ليلهِ أخا فِكَر ... فهو مَدَىٰ الليل نائمٌ، ساهر

قال: فَعلمت أنَّه ممَّن يعبد بالفَكرةَ، فانصرفت عنه». اهـ.

قلت: وإنَّما ختم القرطبي هذا الجزء بهذا النقل ليبيّن إنَّ هذا ليس من منهج السلف والعلماء الثقات الأثبات؛ قال رسول اللَّه ﷺ من حديث عائشة: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**» رواه البخاري «٢٦٩٧» ومسلم (١٧١٨)، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وصحبه الكرام.

وقال ابن كثير في: «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١١٧، وما بعدها) كلامًا قويًّا وآثارًا مهمّة:

«ومعنىٰ الآية: أنه يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيها من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب وسيَّارات، وثوابت وبحار، وجبال وقفار، وأشجار ونبات وزروع وثمار، وحيوان ومعادن ومنافع، مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: في تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثُمَّ يعتدلان، لم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيرًا ويقصر الذي كان طويلًا، وكل ذلك تقدير العزيز العليم؛ ولهذا

قال: ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها علىٰ جلياتها، وليسوا كالصم البُكْم الذين لا يعقلون؛ الذين قال اللَّه تعالىٰ فيهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦] ثُمَّ وصف تعالىٰ أولي الألباب فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾؛ كما ثبت في «صحيح البخاري» [١١١٥] عن عِمْران بن حصين ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال: «**صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلىٰ جنبك**».

أي: لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يفهمون ما فيها من الحِكمِ الدالّة علىٰ عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته، واختياره ورحمته.

● **قال الشيخ أبو سليمان الداراني**: «إنِّي لأخرج من منزلي، فما يقع بصري علىٰ شيْء إلَّا رأيت به عليَّ فيه نِعْمَة، أوْلي فيه عبرة» رواه ابن أبي الدنيا في كتاب: «التفكُّر والاعتبار».

وعن الحسن البصري أنه قال: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة».

وقال الفضيل: قال الحسن: «الفكر مرآة تريك حسناتك وسيّئاتك».

وقال سفيان بن عيينة: «الفكرة نور يدخل قلبك»، وربَّما تمثّل بهذا البيت:

إذا الـمـرء كـانـت لـه فِـكْـرة ففـي كـل شـيء لـه عـبـرة

وعن عيسىٰ عليه السلام أنه قال: «طوبَىٰ لمن كان قِيْلُهُ تذكّرًا، وصمته تفكُّرًا، ونظره عَبْرًا».

وقال لقمان الحكيم: «إنَّ طول الوحدة ألْهَمُ للفِكْرةِ، وطول الفِكْرة دليل علىٰ طرْق الجنَّة».

وقال وهب بن مُنبِّه: «ما طالت الفكرة امرئ قط إلا فَهِمَ، وما فَهِم امرؤ قط

إلَّا علم، وما علم امرؤ قط إلَّا عمل».

وقال عمر بن عبد العزيز: «الكلام بذكر اللَّه ﷻ حَسَن، والفكرة في نِعَمِ اللَّه أفضل العبادة».

وقال مغيث الأسود: «زوروا القبور كل يوم تفكركم، وشاهدوا الموقف بقلوبكم، وانظروا إلىٰ المنصرف بالفريقين إلىٰ الجنَّة والنَّار، وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النَّار ومقامعها وأطباقها»، وكان يبكي عند ذلك حتىٰ يُرفع صَريعًا من بين أصحابه، قد ذهب عقله.

وقال عبد اللَّه بن المبارك: «مرَّ رجل براهب عند مقبرة ومزبلة فناداه فقال: يا راهب إنَّ عندك كنْزَيْن من كنور الدنيا لك فيهما مُعتبر، كنز الرجال وكنز الأموال».

وعن ابن عمر: أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي خربة فيقف علىٰ بابها فينادي بصوت حزين فيقول: «أين أهلك؟!» ثُمَّ يرجع إلىٰ نفسه فيقول: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

وعن ابن عباس أنه قال: «ركعتان مقتصدتان في تفكّر، خير من قيام ليلة والقلب ساه».

وقال الحسن البصري: «كُلْ في ثلث بطَنك، واشرب في ثلثه، ودع ثلثه الآخر تتنفّس الفكرة».

وقال بعض الحكماء: «من نظر إلىٰ الدنيا بغير العِبْرة انطمس من بصر قلبه بقدر تلك الغفلة».

وقال بشر الحافي: «لو تفكّر النَّاس في عظمة اللَّه تعالىٰ لما عصوه».

وقال الحسن عن عامر بن عبد قيس: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النَّبِيّ ﷺ يقولون: «إنَّ ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكّر».

وعن عيسىٰ عليه السلام أنه قال: «يا ابن آدم الضعيف، اتق اللَّه حيثما كنت، وكنْ في الدنيا ضيفًا، واتخذ المساجد بيتًا، وعَلّمَ عينك البكاء، وجسدك الصَّبر، وقلبك الفِكْر، ولا تهتم برزق غدٍ».

وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، أنه بكيَ يومًا بين أصحابه، فَسُئِل عن ذلك فقال: «فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها، فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتىٰ تكدرها مرارتُها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إنَّ فيها مواعظ لمن ادَّكر».

وقال ابن أبي الدنيا: أنشدني الحُسين بن عبد الرحمن:

«نزهة المؤمن الفِكره ... لذة المؤمن العِبَرِهْ
نحمد اللَّهَ وحدَه ... نحن علىٰ كل عَلَىٰ خَطَرهْ
رُبَّ لاهٍ وعُمْرُه ... قد تقضَّىٰ وما شَعَرهْ
ربَّ عيش قدْ كان فو ... ق المُنَيَ مُونقَ الزَّهَرهْ
في خرير من العيُو ... ن وَظِل من الشَّجَرهْ
وسرور من النَّبَا ... ت وطيَب من الثَّمَرهْ
غيَّرته وأهْلَهُ ... سرعةُ الدَّهر بالغِيْرْ
نحمد اللَّه وحده ... إنَّ في ذا لمعتبرْ
إنَّ في ذا لعبرةً ... للبيب إنْ اعْتبرْ»

وقد ذم تعالىٰ من لا يعتبر بمخلوقاته الدالّة علىٰ ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، ومدح عباده المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾؛ أي: ما خلقت هذا الخلق عبثًا، بل بالحقّ ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟

﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١]، ثُمَّ نزّهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: عن أنْ يخلق شيئًا باطلًا ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ أي: يا من خلق الخلق بالحق والعدل، يا من هو مُنزّه عن النقائص والعيب والعبث قنا من عذاب النَّار بحولك وقوّتك، وقيضْنا لأعمال ترضىٰ بها عنَّا، ووفّقْنا لعمل صالح تهدينا به إلىٰ جنات النعيم، وتجيرنا به من عذاب أليم.

ثُمَّ قالوا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾؛ أي: أهنته وأظهرت خِزْيه لأهل الجمع ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾؛ أي: يوم القيامة لا مُجير لهم منك، ولا مُحِيد لهم عمَّا أردت بهم.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾؛ أي: داعيًا إلىٰ الإيمان وهو الرسول ﷺ [أي: محمّدًا، قاله ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين، وقال محمد بن كعب القرظيّ: هو القرآن، وليس كلهم سمع رسول اللَّه ﷺ؛ دليل هذا القول: ما أخبر اللَّه تعالىٰ عن مؤمني الجنّ إذْ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١-٢]، وأجاب الأولون فقالوا: من سمع القرآن فكأنما لقِيَ النَّبِيّ ﷺ وهذا صحيح» قاله القرطبي في: «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٢٤٣).

قلت: ولقوله تعالىٰ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]].

قوله: ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾؛ أي: يقول: ﴿ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾؛ أي: استجبنا له واتبعناه، ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾؛ أي: بإيماننا واتبعنا نبيِّك فاغفر لنا ذنوبنا؛ أي: استرها ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾؛ أي: فيما بيننا وبينك ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾؛ أي: ألحقنا بالصالحين ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ قيل معناه: علىٰ الإيمان برسلك، وقيل معناه: علىٰ ألسنة رسلك، وهذا أظهر.

قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: علىٰ رءوس الخلائق ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾؛ أي: لابدّ من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك وهو يوم القيامة بين يديك. . . . .

وروىٰ ابن أبي الدنيا: قيل الأوزاعي: ما غاية التفكّر فيهن؟ قال: يقرؤهُنَّ وهو يعقِلُهُن».

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني . . . . سألت الأوزاعي عن أدنىٰ ما يتعلق به المتعلّق من الفكر فيهن وما يُنْجيه من هذا الويل؟ فأطرق هُنيَّة ثُمَّ قال: «يقرؤهن وهو يعقلُهُن». اهـ.

وأجملَ السعدي في معنىٰ هذه الآيات فلخّص القول في كلِمات يسيرة، بعد عرض ما ذكرته آنفًا من كلام أهل التفسير مفصلًا، وهو ما يسميه أهل اللغة: «فذلكة»؛ أي: إجمال بعد تفصيل، فقال في «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٦١):

«وفي ضمن ذلك حثّ العباد علىٰ التفكّر فيها والتبَصُّر بآياتها وتدبّر خلقها، وأبْهم قوله: ﴿ءَايَـٰتِهِۦ﴾، ولم يقل: «علىٰ المطلب الفلاني» إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأنَّ فيها من الآيات العجيبة ما يُبْهر الناظرين، ويقنع المتفكرّين، ويجذب أفئدة الصادقين، ويُنبّه العقول النيّرة علىٰ جميع المطالب الإلهية.

فأمَّا تفصيل ما اشتملت عليه: فلا يمكن لمخلوق أن يحصُره، ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة وانتظام السير والحركة، يدلُّ علىٰ عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصّنع ولطائف الفعل؛ يدلُّ علىٰ حكمة اللَّه ووضعه الأشياء مواضعها وسعة علمه، وما فيها من المنافع للخلق، يدلُّ علىٰ سعة رحمة اللَّه، وعموم فضله، وشمول برّه، ووجوب شُكْره.

وكل ذلك يدلُّ علىٰ تعلّق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأنْ لا يشرك به سواه، ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، وخصّ اللَّه بالآيات أولي الألباب وهم أهل العقول؛ لأنَّهم هم المنتفعون

بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم». اهـ.

قلت: فهذا خلاصة التصور الإدراكيِّ لخواتيم سورة آل عمران، بما فيها من الفكَر والعِبَر والمواعظ والبيّنات، والفوائد التي يحيا بها النَّاس جميعًا، ويسعد بها المؤمنون المتقون الموحدون الممتثلون لما أمر به اللَّه ورسوله، وما نهىٰ عنه اللَّه ورسوله، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود اللَّه، الداعون إلىٰ اللَّه علىٰ بصيرة كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ثُمَّ سيأتي بإذن اللَّه شرح بقية الآيات العشر.

فلمَّا كانت القاعدة الكلّية المتفق عليها شرعًا وعقلًا: «**الحكم علىٰ الشيْء فرع عن تصوّره**» يعني: لا يستطيع المرء أن يحكم علىٰ أي حكم؛ حتىٰ يتصور هذا الشيء تصورًا سليمًا صحيحًا، ثُمَّ يحكم عليه حكمًا يوافق العقل والفكر والوعي والإدراك المستقيم، القائم علىٰ دعائم الحق وأصول الفكر المنضبط علىٰ الأدلة الشرعية، والعقل الذي يوافق التوفيق والرشاد والسداد، وبهذا يصيب المَرْءُ الاستقرار المؤدي إلىٰ الثبات علىٰ مثل ما كان عليه النَّبِيّ ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم.

فكانت هذه المقالة لإصابة هذا التصوّر الشرعي الذي يترتَّب عليه الحكم المراد من خواتيم سورة آل عمران، كما في حديث البخاري ومسلم الذي بدأت به هذا المقال من أجلَّ ذلك صحة التفكّر في آيات اللَّه والتدبر والاعتبار.

لذلك قال الإمام أبو جعفر الطبري في: «جامع البيان في تأويل آي القرآن» (٤/ ١٧) وما بعدها):

«وهذا احتجاج من اللَّه تعالىٰ ذكره علىٰ قائل ذلك، وعلىٰ سائر خلقه، بأنَّه المدبّر المُصَرِّف الأشياء، والمُسخِّر ما أحب، وإن الإغناء والإفقار إليه وبيده، فقال جلَّ ثناؤه: تدبَّروا أيها النَّاس واعتبروا؛ ففيما أنشأته فخلقته من السموات

والأرض لمعاشكم وأقواتكم وأرزاقكم، وفيما عقبت بينه من الليل والنهار، فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم، تتصرفون في هذا لمعاشكم؛ وتسكنون في هذا إراحة لأجسادكم، معتبرٌ ومدّكر، وآيات وعظات، فمن كان منكم ذا لبّ وعقل، يعلم أنَّ منْ نسبني إلىٰ أنّي فقير وهو غنيّ كاذبٍ مُفْترٍ، فإنَّ ذلك كله بيدي أقلبه وأصرفه، ولو أبطلت ذلك لهلكتم، فكيف يُنسْبُ فقر إليّ من كان كل ما به عيش ما في السماوات والأرض بيده وإليه؟!

أم كيف يكون غنيًّا من كان رزقه بيد غيره؟ إذا شاء رزقه، وإذا شاء حرمه؟! فاعتبروا يا أولي الألباب». اهـ.

قلت: فهذا التصور المعتدل والفكر المُستنير علىٰ الكتاب والسُّنَّة، هو الذي تنضبط به الدنيا والدين وتستقر به القلوب الصحيحة، بل هذا الذي تستقيم به قلوب الموحّدين.

ثُمَّ أكد الطبري المعنىٰ لربطه بالآية التي بعدها ليتم فهم المعنىٰ المراد فقال:

«قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا﴾ من نعت: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع خفض؛ ردًّا علىٰ قوله: ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ ومعنىٰ الآية: إنَّ في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذاكرين اللَّه قيامًا وقعودًا وعلىٰ جنونهم، يعني بذلك: قيامًا في صلاتهم وقعودًا في تشهّدهم وفي غير صلاتهم وعلىٰ جنوبهم نيامًا، . . . . . وأمَّا قوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنّه يعني بذلك أنَّهم يعتبرون بصنعة صانع ذلك، فيعلمون أنه لا يصنع ذلك إلَّا من ليس كمثله شيء، ومن هو مالك كل شيْء ورازقه، وخالق كل شيء ومدبّره، من هو علىٰ كلّ شيء قدير، وبيده الإغناء والإفقار، والإعزاز والإذلال، والإحياء والإماتة، والشقاء والسعادة.

[**قلت**: وكذلك الإمراض والإشفاء؛ حيث قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]] أمَّا قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾؛ يعني بذلك تعالىٰ ذكره: ويتفكرّون في خلق السماوات والأرض قائلين: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ يقول: لم تخلق هذا الخلق عبثًا ولا لعبًا، لم يخلقه إلَّا لأمر عظيم من ثواب وعقاب ومحاسبة ومجازاة، وإنَّما قال: ما خلقت هذا باطلًا، ولم يقل: ما خلقت هذه ولا هؤلاء، لأنه أراد بهذا الخلق الذي في السموات والأرض، يدلّ علىٰ ذلك قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ورغَبَتُهُمْ إلىٰ ربّهم في أن يقيهم عذاب الجحيم، ولو كان المعنيّ بقوله: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ السموات والأرض، لما كان لقوله عقيب ذلك: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ معنًىٰ مفهوم؛ لأنَّ السموات والأرض أدّلة علىٰ بارئها، لا علىٰ الثواب والعقاب، وإنَّما الدليل علىٰ الثواب والعقاب: الأمر والنهي، وإنَّما وصف جلّ ثناؤه أولي الألباب الذين ذكرهم في هذه الآية: أنَّهم إذا رأوا المأمورين المنهيين قالوا: يا ربنا لم تخلق هؤلاء باطلًا عبثًا ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ يعني: تنزيهًا لك وتعظيمًا لك من أن تفعل شيئًا عبثًا، ولكنك خلقتهم لعظيم من الأمر، لجنة ونار، ثُمَّ فزعوا إلىٰ ربّهم بالمسألة أن يجيرهم من عذاب النار، وأن لا يجعلهم مِمَّن عصاه وخالف أمره، فيكونوا من أهل جهنَّم». اهـ.

قلت: وهذا هو التصور الإدراكيِّ الفهميِّ الواعي في الربط بين الآيتين السابقتين، وبين الآية التي قبلها: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني بين صفات أولي الألباب وقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ إذْ التفكر والاعتبار والاتعاظ والفهم والإدراك وصحة التصور يكون من أولي الألباب العقلاء، وهؤلاء هو المستفيدون من كتاب اللَّه وسنة رسوله، كما قال ﷺ: «**من يرد اللَّه به خير يفقهه في الدين**» رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٩٠٧) في «صحيحيهما».

والفقه: الفهم، والفهم هو الفوز بخيريِّ الدنيا والآخرة، والحمد للَّه

ربّ العالمين.

ثُمَّ أكمل شرح بقية الآيات العشر من خواتيم سورة آل عمران فأقول:

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

قال ابن كثير في: «تفسيره» (٢/ ١٢٢):

«ومعنىٰ الآية: أنَّ المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا ما سألوا مِمَّا تقدَّم ذكره فاستجاب لهم ربهم عقب ذلك بفاء التعقيب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ هذا تفسير للإجابة؛ أي: قال لهم مجيبًا لهم أنه لا يضيع عمل عامل لديه؛ بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو انثىٰ، وقوله: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾؛ أي: جميعكم في ثوابي سواء.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾؛ أي: عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحًا.

روىٰ ابن أبي حاتم . . . . أخبرني حريز بن عثمان: أنَّ شداد بن أوس كان يقول: يا أيها النَّاس لا تتهموا اللَّه في قضائه؛ فإنه لا يبغي علىٰ مؤمن، فإذا أُنزل بأحدكم شيء ممَّا يجب فليحمد اللَّه، وإذا أنزل به شيء ممَّا يكره فليصبر وليحتسب؛ فإنَّ اللَّه عنده حسن الثواب». اهـ.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ

فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٦- ١٩٨].

قال ابن كثير في: «تفسيره» (٢/ ١٢٣ - ١٢٤):

«لا تنظروا إلىٰ ما هؤلاء المترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور، فعمَّا قليل يزول هذا كله عنهم ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيّئة، فإنَّما نمد لهم فيما هم فيه استدراجًا، وجميع ما هم فيه ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩ - ٧٠]. . . . .

قال ابن أبي حاتم: حدثنا . . . . . قال عبد اللَّه بن مسعود مرة: ما من نفس برّة ولا فاجرة إلَّا الموت خير لها، لئن كان برًّا لقد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾.

وكذا رواه عبد الرزاق عن الأعمش عن الثوري وقرأ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال ابن جرير الطبري: حدثنا . . . . عن أبي الدرداء أنه كان يقول: ما من مؤمن إلَّا والموت خير له، وما من كافر إلَّا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإنَّ اللَّه يقول: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ ويقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] يخبر تعالىٰ عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون باللَّه حق الإيمان، ويؤمنون بما أنزل علىٰ محمد مع ما هم مؤمنون به من

الكتب المتقدمة، أنهم خاشعون للَّه؛ أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه لا يشترون بآيات اللَّه ثمنًا قليلًا؛ أي: لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ وذكر صفته ونعْته وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هودًا أو نصارىٰ وقد قال تعالىٰ في سورة القصص: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٢- ٥٤] الآية، وقد قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١] الآية.

قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ قال مجاهد: سريع الحساب: يعني سريع الإحضاء، رواه ابن أبي حاتم». اهـ.

● ولقد أتَّم اللَّه هذه السورة بهذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

روىٰ الطبري في «جامعه» (٨٢٨٠) عن قتادة قال: «أي: اصبروا علىٰ طاعة اللَّه، وصابروا أهل الضلالة، ورابطوا في سبيل اللَّه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾».

ثُمَّ روىٰ (٨٢٨٤) عن محمد بن كعب القرظي قال: «اصبروا علىٰ دينكم، وصابروا الوعد الذي وعدتكم، ورابطوا عدوي وعدوكم، حتىٰ يترك دينه لدينكم».

وروىٰ الطبريّ (٨٢٩٠) ما رواه مسلم في «صحيحه» (٢٥١) عند هذه الآية من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ألا أدلكم علىٰ ما يحط اللَّه به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟**» قالوا: بلىٰ يا رسول اللَّه، قال: «**إسباغ الوضوء علىٰ المكاره وكثرة الخطا إلىٰ المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**».

ثُمَّ قال الطبري في «جامعه» (٤/ ٢٣١):

«وأولىٰ التأويلات بتأويل هذه الآية من قال في ذلك: يا أيها الذين صدقوا اللَّه ورسوله، اصبروا علىٰ دِينكم وطاعة ربكم، وذلك أن اللَّه لم يخصص من معاني الصبر علىٰ الدين والطاعة شيئًا، فيجوز إخراجه من ظاهر التنزيل؛ فلذلك قلت إنه عنىٰ بقوله تعالىٰ: «اصبروا» الأمر بالصبر علىٰ جميع معاني طاعة اللَّه فيما أمر ونهىٰ صعبها وشديدها، وسهلها وخفيفها.

أمَّا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يعني بذلك تعالىٰ ذكره: واتقوا اللَّه أيها المؤمنون واحذروه أن تخالفوا أمره أو تتقدموا فيه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: يقول: لتفلحوا فتبقوا في نعيم الأبد، وتنْجحوا في طلباتكم عنده.

[٨٢٩٢] كما حدثنا . . . . . عن محمد بن كعب القرظي في قوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ واتقوا اللَّه فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون غدًا إذا لقيتموني». اهـ.

وقال ابن كثير في: «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ١٢٥- ١٢٦):

«قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ قال الحسن البصري: أمروا أن يصبروا علىٰ دينهم الذي ارتضاه لهم وهو الإسلام، فلا يدعوه لسرَّاء ولا لضراء ولا لشدّة ولا لرخاء حتىٰ يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم، وكذلك قال غير واحد من علماء السلف.

وأمَّا المرابطة: فهي المداومة في مكان العبادة والثبات.

وقال ابن مردوية: حدثنا . . . . . عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: أقبل عليَّ أبو هريرة يومًا فقال: أتدري يا ابن أخي فيم نزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾؟ قلت: لا، قال: أمَّا إنه لم يكن في زمان النَّبيّ ﷺ غزو يرابطون فيه، ولكنها نزلت في قوم يعمرون المساجد ويصلون الصلاة في

مواقيتها، ثُمَّ يذكرون اللَّه فيها أنزلت: ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ علىٰ الصلوات الخمس ﴿وَصَابِرُواْ﴾ أنفسكم وهواكم ﴿وَرَابِطُواْ﴾ في مساجدكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما عليكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

وهكذا رواه الحاكم في «مستدركه»». اهـ. **قلت**: رواه الحاكم في «المستدرك» (٣١٧٧) وصححه ووافقه الذهبيّ.

قال الأصفهاني في: «المفردات في غريب القرآن» (ص: ٥٣١):

«الوقاية: حفظ الشيء ممَّا يُؤذيه ويضره، والتقوىٰ جعل النفس في وقاية ممَّا تخاف، هذا تحقيقه، وصار التقوىٰ في تعارف الشرع حفظ النفس عمَّا يؤثِمُ، وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات، لما روي: «**الحلال بين والحرام بين، ومن رتع حول الحمىٰ وحقيق أن يقع فيه**» [أصله في البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩)]، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]».

قال الطبريّ في: «جامعه» (١٤/ ٢٠٤):

«يقول تعالىٰ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ اللَّه في محارمه فاجتنبوها، وخافوا عقابه عليها، فأحجموا عن التقدم عليها ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ يقول: وهو مع الذين يحسنون رعاية فرائضه والقيام بحقوقه ولزوم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه». اهـ.

وقال ابن كثير في: «تفسيره» (٤/ ٣٨٩):

«ومعنىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾؛ أي: تركوا المحَّرمات ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾؛ أي: فعلوا الطاعات، فهؤلاء اللَّهُ يحفظهم، ويكلؤهم، وينصرهم، ويؤيدهم، ويظفرهم علىٰ أعدائهم ومخالفيهم». اهـ.

فهذا حال أولي الألباب المتقين المتفكِّرين المعتبرين: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، وقال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ وَلِىِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وكل هذه الآيات الجليلات البيّنات الواضحات تدخل تحت خواتيم آل عمران، وبيان ما فيها من الفِكَر والعِبَر، ومن يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين، والحمد للَّه ربّ العالمين وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

كتبه

الدكتور عيد بن أبي السعود الكيَّال

دكتوراه من كلية الشريعة جامعة الأزهر

بالقاهرة حفظها اللَّه